

قراءة في ديوان ابن رشيق

د. عبد الرحمن فارسي

جامعة تلمسان

تعود صلتي بابن رشيق إلى فترة الدراسة الجامعية و بالضبط في ثمانينيات القرن العشرين عندما كنت طالبا بالمعهد الوطني للغة والأدب العربي بتلمسان؛ إذ تلقيت في السنة الثانية محاضرات ودروسا تطبيقية في مقياس: الأدب الأندلسي والأدب المغربي. غير أنني لاحظت أن أغلب المحاضرات والدروس كانت تتناول الأدب الأندلسي ما دام أن النصوص الأدبية المغربية نادرة، وإن وجدت فهي قليلة إذا ما قيست بالنصوص الأدبية الأندلسية. وإسهاما مني في التعريف برمز من رموز الثقافة المغربية في التاريخ القديم ارتأيت أن أقوم بقراءة في ديوان المؤرخ، واللغوي، والأديب، والناقد ابن رشيق.

ولد علي الحسن بن رشيق المسيلي حوالي سنة 390هـ بمدينة المسيلة، وبها تعلم بعضا من علوم اللغة العربية. وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره انتقل إلى حاضرة العلم والأدب مدينة القيروان ⁽¹⁾ التي كانت في ظل حكم المعز بن باديس الزيري الصنهاجي "وجهة العلماء والأدباء، تشد إليها الرحال من كل فج، لما يروونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب وعنايته بهم" ⁽²⁾. وفي مدينة القيروان اتصل ابن رشيق بالمعز ابن باديس الذي أكرم وفاته وجعله من خواص ندمائه إلى جانب ابن شرف القيرواني.

تلمذ ابن رشيق على عدد من شيوخ عصره نذكر منهم: أبا الحسن علي بن أبي الرجال صاحب كتاب "البارع في النجوم"، ومبدع "أرجوزة في الكلام"، و "أرجوزة في دليل الرعد"، و أبا إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري المعروف بالحصري مؤلف كتاب "زهرة الآداب وثمر الألباب"، وكتاب "جمع الجواهر في الملح والنوادر"، وكتاب "نور الظرف ونور الطرف"، وكتاب "المصون في سر الهوى المكنون"، وكتاب "طيبات الأغاني، مطريات القيان". ومن شيوخه أيضا أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي صاحب كتاب "المتع" وأبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي النحوي المعروف بالقزاز صاحب كتاب "ضرائر الشعر" ⁽³⁾.

ظل ابن رشيق ملازما للمعز بن باديس إلى أن غزا عرب بني هلال بإيعاز من الدولة الفاطمية بمصر مدينة القيروان وعاثوا فيها فسادا، فغادرها مكرها رفقة الأمير وحاشيته وندمائه من الشعراء، واستقر بمدينة

المهدية ولكن سرعان ما غادرها متجها نحو جزيرة صقلية، واختلفت الأسباب في رحلته هذه، فمنهم من يرى أن الشاعر ابن شرف راسل ابن رشيق ورغبه في الرحيل إلى جزيرة صقلية فاستجاب ابن رشيق لدعوة ابن شرف بعد أن ازدادت العلاقة سوءا بينه وبين الأمير المعز بن باديس⁽⁴⁾، ومنهم من يعتقد أن ابن رشيق لم يطق المقام بمدينة المهدية بعد وفاة المعز بن باديس فغادرها إلى صقلية⁽⁵⁾، والاحتمال الثاني أقرب إلى الصواب، ذلك أن ابن بسام أورد في كتاب "الذخيرة" حادثة تمثلت في أن ابن رشيق أنشد المعز ابن باديس وهو في مجلسه بالمهدية قصيدة قصيدة مطلعها:

تثبت لا يخامرك اضطراب فقد خضعت لعزتك الرقاب

وبعد سماع الأمير القصيدة غضب لأنه رأى فيها خطأ من قيمته فأمر بالرقعة التي كتبت عليها القصيدة فمزقت ولم يكتف بذلك بل أعطى أمره لخدامه بإحراق الرقعة⁽⁶⁾. وعن مقام ابن رشيق بمازر إحدى قرى جزيرة صقلية يقول القفطي: "ونزل مازر إحدى مدنها على أميرها ومتوليها ابن مطكود، فأكرمه واختصه، وقرأ عليه كتبه ومن جملة ما رأيته من قراءاته عليه كتاب "العمدة" في صنعة الشعر، وهو أجل كتبه وأكبرها. ورأيت خط ابن رشيق على نسخة منها، ولم يزل عنده إلى إن مات بمازر"⁽⁷⁾. ظل ابن رشيق يقيم بمازر إلى أن لقي ربه، غير أن العلماء اختلفوا في تاريخ وفاته، فمنهم من يرى أن وفاته كانت سنة 450 هـ⁽⁸⁾، ومنهم من يظن أنه مات سنة 456 هـ⁽⁹⁾، ومنهم من يدعي أنه فارق الحياة سنة 463 هـ⁽¹⁰⁾.

خلف ابن رشيق ما يربو عن ثلاثين كتابا ورسالة في الأدب والشعر والنقد واللغة غير أن معظمها ضاع ولم يبق منه إلا العناوين، أكتفي بذكر بعضها:

– العمدة في محاسن الشعر وآدابه

– قراضة الذهب في نقد أشعار العرب

– أنموذج الزمان في شعراء القيروان

– الشذوذ في اللغة

– كشف المساويء وموضوعه السرقات الشعرية

– صدق المدائح

– الأسماء المعربة

وإضافة إلى ما ذكرناه من المؤلفات فإن ابن رشيق خلف ديوانا شعريا ولكنه ضاع كما ضاع جل تراثنا الأدبي.

ويشيد ابن بسام بشعر ابن رشيق فيقول بعد أن عقد مقارنة بينه وبين الشاعر ابن شرف: "وبينه (يقصد ابن شرف) وبين أبي علي بن رشيق ماج بحر البلاغة ودام، ورجع نجم هذه الصناعة واستقام، وذهبا في المناقضة مذهبا تنازعا شرا طويلا، وخلدها ذكرا محمولا، واحتملاه - إن لم يسمح الله - وزرا ثقيلا. وكان أبو علي أوسعهما نفسا، وأقربهما ملتصبا، ولابن شرف أصالة منزعه، وجلالة مقطعه، ومتانة لفظه، وسعة حفظه، فتسمع بشعر ملآن من وعوة وجعجة"⁽¹¹⁾.

ويذكر الدكتور عبد العزيز نبوي أنه تعرف على محاولتين لجمع شعر ابن رشيق: المحاولة الأولى قام بها الأستاذ عبد العزيز الميمني في كتابه "النتف في شعر ابن رشيق وابن شرف"، والمحاولة الثانية قام بها الدكتور عبد الرحمن ياغي الذي أضاف إلى ما وجدته في كتاب النتف ما وقعت عليه يده في بعض المصادر⁽¹²⁾.

ويذكر الدكتور محي الدين ديب أن أول من جمع شعر ابن رشيق - بعد فقدان ديوانه الأصلي - هو الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه "بساط العقيق"⁽¹³⁾.

ونضيف إلى المحاولات السابقة الذكر محاولة الدكتور محي الدين ديب الذي عاد إلى عمل الدكتور عبد الرحمن ياغي وكذلك إلى شرح الدكتور صلاح الدين الهواري لديوان ابن رشيق فوجد فيهما نقصا حاول استدراكه بعد اطلاعه على مقال الدكتور الشاذلي بويحيى والذي نشرته حليات الجامعة التونسية، وذكر في مقدمة الديوان الذي جمعه وحققه وشرحه القصائد والمقطوعات التي أضافها إلى الديوان المطبوع⁽¹⁴⁾.

وبعد عودتي إلى ديوان ابن رشيق الذي نشره الدكتور محي الدين ديب وجدت أن هذا الدارس قام بعمل جبار تمثل في تصدير الديوان بحديث عن تاريخ القيروان في ظل حكم الصنهاجيين، وتعريف بابن رشيق وكتبه، ودراسة موجزة لشعره، وجاء بملحق أورد فيه ترجمة لابن رشيق من بعض كتب التراجم، ككتاب الذخيرة لابن بسام، وإبناه الرواة للقفطي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، والوافي بالوفيات للصفدي.

يضم ديوان ابن رشيق بين دفتيه سبعمائة وثمانية وثمانين بيتا موزعة على سبع عشرة قصيدة، ومائتي مقطوعة، وأربعة وعشرين بيتا مفردا رتبها الدكتور محي الدين ديب تبعا للترتيب الألف بائي.

وما ألاحظه في هذا الديوان هو أن أغلب شعر ابن رشيق مقطوعات، ويعود السبب - في نظري - إلى ضياع المخطوط الأصلي للديوان.

ولا أتفق مع الدكتور عبد العزيز نبوي حين يرى أن ديوان ابن رشيق

في غالبه شعر مقطوعات، وحجته في ذلك أن ابن رشيق لم يكن شاعرا محترفا بل كان ينظم الشعر للتسلية والترفيه عن النفس، وأن شعره يدور في غالبته حول الحكم، والأمثال، وذم المجالس، ووصف بعض الخضر والفواكه، وهي موضوعات ليس من شأنها أن يطول فيها القول⁽¹⁵⁾. بل أرى أن ابن رشيق برع في نظم الشعر، وأنه كان ذا نفس طويل وحجتي في ذلك نظمه القصائد الطوال مثل القصيدة التي رثى بها القيروان ومجموع أبياتها ستة وخمسون بيتا يقول⁽¹⁶⁾ في مطلعها:

كم كان فيها من كرام سادة بيض الوجوه شوامخ الإيمان

وأعتقد أن أغلب قصائد ابن رشيق ضاعت أثناء رحلته من القيروان إلى مدينة المهدية، و أن بعضها الآخر أتلّفه عرب بني هلال أثناء غزوهم للقيروان، إضافة إلى القصيدة التي مدح بها ابن رشيق الأمير المعز ابن باديس في مجلسه بالمهدية والتي أمر الأمير بإحراقها، يقول ابن رشيق⁽¹⁷⁾ في مطلع تلك القصيدة:

تثبت لا يخامرك اضطراب فقد خضعت لعزتك الرقاب

نظم ابن رشيق في مختلف الأغراض الشعرية التي كانت سائدة في عصره كالمدح، والهجاء، والغزل، والوصف، والثناء... وهذه بعض النماذج من شعره: يقول ابن رشيق⁽¹⁸⁾ في مدح المعز ابن باديس وتهنئته بعقد الإمارة لولده الأمير أبي منصور نزار سنة 422هـ:

عن مثل فضلك تنطق الشعراء وبمثل فخرك تفخر الأمراء

وأرى الثرى والماء حولك حملا ما لا يقوم له الثرى والماء

لم يبق من طرف العراق وغيره شيء يروق العين منه رواء

حتى كأن الشرق أعمل فكره في أن حوته يمينك البيضاء

وهجا ابن رشيق منافسه الشاعر ابن شرف ذاكرا أنه ينتسب إلى أمه وليس لأبيه فيقول⁽¹⁹⁾:

بنو شرف شرف أمهم وليست أباكم فلا تكذب

ولكنها التقطت شيخكم فأثبت في ذلك المنصب

أبينوا لنا أمكم أولا ونحن نسامحكم بالأب

ويتأثر ابن رشيق لما أصاب القيروان من دمار بعد أن غزاها عرب بني هلال فينظم قصيدة طويلة في رثائها، صور فيها المدينة الجريحة إبان مجدها، وتأسف على ما أصاب القيروان، ولما آلت إليه حال المسلمين، وختم القصيدة بأمنيته في أن يعود للقيروان مجدها وبهاؤها وأمنها. ومما قاله⁽²⁰⁾ في هذه القصيدة:

حزنت لها كور العراق بأسرها	وقرى الشام ومصر والخرسان
وترعزعت لمصابها وتنكدت	أسفا بلاد الهند والسندان
وعفا من الأقطار بعد خلائها	ما بين أندلس إلى حلوان
وأرى النجوم طلعت غير زواهر	في أفقهن وأظلم القمران

نظم ابن رشيق شعره على أغلب بحور الشعر العربي — بنسب متفاوتة —

كالكامل ومجزوءه، والبسيط ومخلعه، والطويل، والسريع، والمتقارب ومجزوءه، والوافر ومجزوءه، والخفيف ومجزوءه، والرجز ومجزوءه، والرمل ومجزوءه، والمنسرح، والمجتث، والمديد، والهزج. وفي نهاية قراءتي هذه قمت بعملية إحصائية للبحور التي نظم عليها ابن رشيق شعره وتوصلت إلى نتيجة هي أن شعر ابن رشيق نظم أغلبه على بحر الكامل ومجزوءه، والبسيط و مخلعه، والطويل، وفيما يلي النسب المئوية لكل بحر، وهي نسب تقريبية:

الكامل	23.32%
البسيط	16.37%
الطويل	12.64%
السريع	9.98%
الوافر	5.98%
المتقارب	5.96%
الخفيف	4.06%
مجزوء الكامل	2.91%
مخلع البسيط	2.66%
مجزوء الرجز	2.55%
المنسرح	2.41%
مجزوء الرمل	2.15%

المجثث	01.90%
الرجز	01.64%
المتقارب	00.76%
المديد	00.50%
مجزوء الوافر	00.38%
مجزوء الخفيف	00.38%
الهنج	00.25%
الرمل	00.21%

الهوامش:

- 1) ينظر القفطي: إنباه الرواة على أنباء النحاة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الكتب المصرية - القاهرة 1950م - ج 1 ص 299.
و ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - ط 2 - بيروت 1968م - ج 12 ص 12.
- 2) ياقوت الحموي: معجم الأدباء - دار المأمون - ط 2 - القاهرة 1936م - ج 7 ص 96.
- 3) ينظر ابن رشيق القيرواني: الديوان - جمع وتحقيق وشرح د. محي الدين ديب - المكتبة العصرية - ط 1 - صيدا، بيروت 1418هـ/1998م - ص 21 - 22.
- 4) ينظر المصدر نفسه ص 20.
- 5) ينظر د. عبد العزيز نبوي: محاضرات في الشعر المغربي القديم - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1983م - ص 143.
- 6) ينظر ابن بسام الشنتري: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تحقيق د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت 1979م - ق 4 م 2 ص 598.
- 7) القفطي: إنباه الرواة على أنباء النحاة - ج 1 ص 303.
- 8) ينظر المصدر نفسه - ج 1 ص 304.
- 9) ينظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء - ج 7 ص 98.
- 10) ينظر ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - ج 12 ص 14.
- 11) ابن بسام الشنتري: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ق 14 م 1 ص 170.
- 12) عبد العزيز نبوي: محاضرات في الشعر المغربي القديم - ص 149-150.
- 13) ينظر د. محي الدين ديب: ديوان ابن رشيق القيرواني - ص 7-8.
- 14) ينظر المصدر نفسه ص 8-9.
- 15) د. عبد العزيز نبوي: محاضرات في الأدب المغربي القديم - ص 150.
- 16) ينظر ابن رشيق القيرواني: الديوان - ص 143-148.
- 17) المصدر نفسه ص 43.
- 18) المصدر نفسه ص 33-34.
- 19) المصدر نفسه ص 46.
- 20) المصدر نفسه ص 147.